الكاتب المصرى

محرم ١٣٦٥ يناير ١٩٤٦

مجلد ١ — عدد ٤

المعذبون فى الأرض

[إلى الذين يحرقهم الشوق إلى العدل ، وإلى الذين يؤرقهم الخوف من العدل ، إلى أولئك وهؤلاء جميعاً أسوق هذا الحديث] .

إذا سمعت الشيخ يرفع صوته بالتكبيرة الأخيرة فأنبئنى ؛ فإن فعلت ذلك فأنت ابنى حقاً . قال الصبى وهو يبتسم لأمه التى كانت تحدّثه هذا الحديث وهى تداعب خده : فإن لم أفعل فابن من أكون ؟

هنالك وجمت أم الصبى شيئاً ، وتضاحك من حولها بنوها وبناتها ، ولكنها لطمت خد الصبى لطمة خفيفة ظريفة وهى تقول : إنك لطويل اللسان كثير الخصام ، ثم دسّت فى يد الصبى قطعة من سكر وأعادت عليه قولها : إذا سمعت الشيخ يرفع صوته بالتكبيرة الأخيرة فأنبئنى ، وإن فعلت ذلك فلك مثلها قبل أن تنام . قال الصبى وهو يقضم السكر قضما : أما الآن فنعم . ثم انطلق مسرعاً يتبعه ضحك أمه ومن حولها بنوها وبناتها .

وكانت الدار قائمة قاعدة فى ذلك المساء ؛ فقد ألمّ بها ضيف لهم خطر ومكانة فى الإقليم ، وهم لم يقبلوا أصفار الأيدى ، وإنما يحملون من الطُّرَف والهدايا شيئاً كثيراً . وكانت سيدة الدار حريصة دائماً على الاحتفاء بالضيف ، مهتمة فى ذلك المساء بالتكبيرة الأخيرة حين يرفع الشيخ بها صوته ليخرج بها من دعائه

بعد صلاة المغرب . فقد كانت أصناف الطعام مهيأة تنتظر أن تحمل إلى المائدة حين يفرغ الضيف من صلاتهم مع الشيخ ، وكان الثريد و أول هذه الأصناف قد هيئ ، ولكن تهيئته لم تتم بعد ؛ فقد فتّ الخبز فى طبق كبير ، وأُعد المرق وتم إعداد الأرز ، وقُطع الثوم قطعاً توشك أن تشبه الذرات . ولكن إعداد هذا الصنف يجب ألا يتم إلا فى اللحظة الأخيرة حتى لايشرب الخبز كل المرق ولا يذهب ريح الثوم والخل فى الجو ، ولا يبرد الأرز فيفسد ما أُلقى عليه من السمن . من أجل هذا كله لم يكن بدٌّ من أن يتسمّع الصبى لدعاء الشيخ حتى إذا رفع صوته بالتكبيرة الأخيرة أسرع إلى أمه فأنبأها ، وأسرعت هى إلى هذه الأخلاط من الخبز والمرق والثوم والخل والأرز فجمعتها فى هذا الطبق الكبير الذى كان ينتظرها من حين . فإذا استفتح العشاء بهذا الصنف تبعته الأصناف الأخرى على مهل وريث ، فليس فى الإبطاء بها بأس ولا جناح . ولكن الصبى لم ينبىء أمه بشىء لأنه لم يسمع شيئاً ، وإنما شغل عن التكبيرة الأولى وعن التكبيرة الأخيرة بأمر ذى بال . وقد فرغ الشيخ وضيفه من صلاتهم وجلسوا يتحدثون ينتظرون أن يحمل إليهم العشاء . وجعل الشيخ يترقب هذا العشاء قلقاً لأنه لم يتعوّد مثل هذا الإبطاء حين يلمّ به الضيف . وقد همّ غير مرة أن يضرب إحدى يديه بالأخرى ليعلم أهل الدار أن الضيف ينتظرون ، ولكنه استحيا وكره أن يظن به تنبيه أهل الدار ، وأن يظن بأهل الدار غفلة أو إهمال . فمضى فى حديثه يرفع به صوته . ومرت من وراء الباب إحدى بناته ، فسمعت الصوت يرتفع بالحديث ، وأسرعت إلى أمها فأنبأتها بما لم ينبئها به الصبى ، وما هى إلا لحظة حتى كان الضيف إلى مائدتهم يأكلون ويلغطون .

وقد كان الصبى خالص النية صادق الرأى ، قد اتخذ مرقبه فى زاوية من فناء الدار ، هنالك حيث تجتمع قطع من الحديد كان يراها كنزه ، وكان يخلو إليها فينفق الساعة والساعات فى جمعها وتفريقها وطرق بعضها ببعض ، يجد فى ذلك تسلية ولهواً ، ينفرد به مرة ويشارك فيه أخته الصغيرة مرة أخرى . وقد جلس فى زاويته تلك أمام حديده ذاك ، واعتزم إذا أتم التهام قطعة السكر أن يُقبل إلى قطع الحديد فيعبث بها فى رفق مانحاً الشيخ وضيفه إحدى أذنيه ، مستمعاً متتبعاً لصلاتهم ، حتى إذا سمع التكبيرة الأخيرة يرتفع بها صوت الشيخ انسلّ إلى أمه فألقى إليها النبأ ثم عاد إلى لعبه فمضى فيه .

ولكنه لم يكد يستقر فى زاويته ويمضى فى قضم سكره حتى أحس يداً تمس كتفه ، ونظر فإذ رفيقه صالح ماثل أمامه يداعب كتفه بإحدى يديه ويقبض بيده الأخرى على طاقة من زهر الحقول يقدّمها إليه باسماً . وقد نظر الصبى إلى صالح فراعه ثوبه الممزق قد ظهر منه صدره أكثر مما ينبغى وقد انشق عن كتفيه فظهرتا منه غليظتين نابيتين ، والثوب على ذلك رث قذر يظهر من جسم الصبى أكثر مما يخفى ، كأنه أسمال قد وُصل بعضها ببعض وصلاً ما ، وعلّقت على هذا الجسم الضئيل الناحل تعليقاً ما ، لتستر منه ما تستطيع وليقال إن صاحبه لا يمضى به متجرداً عريان . ثم رفع الصبى رأسه إلى وجه صالح فرأى بؤساً شاحباً يشيع فيه ، ورأى ابتسامة فيها كثير من حزن وكثير من أمل ، ورأى عينين تدوران تنظران إلى ما حولها ، تنخفضان حينا إلى هـذا الحديد الملقى على الأرض ، وترتفعان حيناً إلى قطعة السكر فى يد رفيقه ، وترتفعان بعد ذلك إلى عناقيد الكرم هذه التى تتدلّى على الجدران وتمتد على هذه العيدان التى نصبت لتحملها .

والصبى على ذلك كله باسط يده إلى رفيقه بهـذه الطاقة الساذجة الخشنة من زهر الحقول يقول له : لم أرد أن أعود إلى دارنا دون أن أمرّ بك وأحمل اليك هذه الأكمام التى لم تتفتح بعـد ، خذها إليك وضعها فى إناء فيه شيء من ماء وانتظر بها الصبح ، ثم أقبل عليهـا فستراها متفتحة عن زهر جميل طيب الرائحة . لم يقل الصبى لصالح شيئا وإنما أخـذ منه زهراته وأعطاه ما بقى فى يده من قطعة السكر ، وأشار إليه أن يجلس ويلعب معه بقطع الحديد . وقد أخـذ صالح قطعة السكر فأطال النظر إليها والتحديق فيهـا وقرّبها من فمه ثم أبعدها عنه ، ثم نظر إليها نظرة قصيرة ، ثم دسها فى فمه بين خده وأضراسه واستأنى بها لتذوب فى رفق وليطول استمتاعه بذوقها الحلو . ثم جلس وأخـذ يقلّب مع رفيقه قطع الحديد . ثم لم يطل صمت الرفيقين ، وإنما استأنفا حديثهما عن الكتّاب وعن الرفاق وعن الحقل وعن أهل القرية . وأُنسى الصبى بهذا كله صلاة الشيخ والضيف والنبأ الذى كان يجب أن يحمله إلى أمه ، ولم يرعه بعـد وقت طويل أو قصير إلا صوت أخته تدعوه من وراء الباب إلى العشاء .

وقد فرغ الشيخ وأصحابه من طعامهم وفرغوا كذلك من الصلاة الآخرة وما يتبعها من دعاء ، ودارت عليهم قهوة الليل . وجمعت ربة الدار الصغار من

بنيها وبناتها إلى طعامهم وافتقدت صاحبنا ذاك المهذار فأرسلت أخته تلتمسه فى مظانه .

ولما سمع صوت أخته تدعوه أبطأ فى الاستجابة لها ، لأنه لم يكن يدرى كيف يخلص من رفيقه أو لم يكن يحب أن يخلص من رفيقه . ولكن صالحاً قال له فى صوت خافت حزين : أجب ، إنك تدعى إلى العشاء . قال الصبى لصالح : وأنت هل تعشيت ؟ قال صالح : سأتعشى حين أبلغ الدار ، ونهض متثاقلا وأدبر يريد أن يخرج ، ولو استطاع لأقام ، ولكنه مضى . وعاد الصبى إلى أمه وفى يده تلك الزهرات . فلما رأته أنكرت نسيانه لما أمرته به ، ولكنها سألته عن هذه الزهرات من حملهن إليه ، قال الصبى وفى صوته اختلاجة خفيفة : حملهن إلى صالح ابن الحاج على . قالت أمه : ولم تعطه شيئا ؟ قال الصبى : أعطيته ما بقى لى من قطعة السكر . قالت أمه : وما تراه يصنع بقطعة السكر ؟ أتراه يدفع بها عن نفسه الجوع ، ألم تستبقه للعشاء ؟ ! قال الصبى مضطربا : هممت ولكننى لم أجرؤ . قالت أمه : فامض فى أثره مسرعاً حتى تعود به وحتى تتعشى معه . وانطلق الصبى كأنه السهم . ولم يكد يجاوز باب الدار حتى رفع صوته بدعاء صاحبه ، ولكنه لم يحتج إلى أن يعدُ ولا إلى أن يكرر الدعاء ، فقد كان صالح قائماً أمام الدار قد استند إلى الحائط ومد بصره أمامه وقدم إحدى رجليه وأخر الأخرى يريد أن يمضى وتنازعه نفسه إلى البقاء . فلما سمع صوت رفيقه أجاب مستخذيا : هأنذا ، ماذا تريد ؟ قال الصبى : أريد أن تبقى لنتعشى معاً . ولم يقل صالح شيئاً ، وإنما تحول إلى رفيقه وسعى فى أثره هادئاً مطرقا كأنه الكلب يتبع صاحبه إذا دعاه .

ولم يكد الصبى يغلق الباب من دونه حتى رأى إحدى أخواته قد وضعت فى زاويته تلك كرسيّاً مستديراً وعليه صينية مستديرة مثله ؛ وقد كثرت على هذه الصينية الأطباق فيها من كل أصناف الطعام التى قدمت للضيف . وأبت أخت الصبى أن تشارك الأسرة فى عشائها وآثرت أن تقوم على خدمة هذين الرفيقين ، حتى إذا فرغا من طعامهما مضى صالح موفوراً وعاد الصبى إلى أمه راضياً . فقالت له وهى تمسح رأسه : إذا زارك رفيق لك فى وقت العشاء فلا ينبغى أن تدعه ينصرف دون أن تدعوه إلى مشاركتك فى الطعام . ثم قالت له بعد صمت قصير : هل تعلم أن صالحاً إنما حمل إليك هذه الزهرات ليتعشى ؟ قال الصبى : لا أعلم . قالت أمه : لقد رأى الأضياف حين أقبلوا ، ورأى ما حملوا

من الطرف والهدايا ، وعلم أن سيكون فى الدار خير كثير هذا المساء ، فأراد أن يصيب منه شيئاً ، واتخذ أزهاره هذه تعلة يلمّ بها فى الدار ليقدّمها إليك. قال الصبى : لو رأيت ثوبه وقد بدا منه صدره وظهره وكتفاه ! قالت أمه : إذا خرجت من الكتّاب غداً فاحمله على أن يصحبك فإن عندى من ثيابك ما يكسوه.

ثم انصرفت إلى بنيها وبناتها تحدّثهم عن الضيف وعن العشاء ، تلوم هذه لأنها أنسيت أن تحرك الأرز حين ألقته فى الماء وهو يضطرب من الغليان ، وأوشك هذا اللون من ألوان الطعام أن يفسد ويصبح عجينة متماسكة لا تصلح لشىء ، ومن حق الأرز ألا يلتئم ولا يتماسك وأن تتفرق حباته وتمتاز . وتثنى على تلك لأنها رفقت بالفالوذج فلم تتركه سائلا تفيض به الملاعق كأنه الحساء ، ولم تجعله جامداً تقطعه الملاعق قطعاً ، ولم تهمل تحريكه حتى تتخلله تلك العقد البغيضة التى لا تجعله سائغاً ولا يسيراً ، وإنما صنعته سواء سهلا لا يبلغ الأفواه حتى تدعوه الحلوق ، وهو فيما بين ذلك خفيف حلو المذاق . وإنها لتتحدث إلى بناتها هذه الأحاديث التى كانت تعلمهن بها فنون الطهى والتى كان أبناؤها يسمعون لها فيغرقون فى ضحك متصل ، وإذا الصبى يقطع عليها حديثها ويسألها ما بال صالح لم يتعش فى داره ؟ أجابت أمه : ألم أقل لك إنه أحس أن سيكون عندنا خير كثير فأراد أن يصيب منه ! قال الصبى : فإنى أرى الأضياف يلمّون بجارنا كما يلمون بنا ، وأعرف أن عند جارنا خيراً كثيراً فلا أسعى إلى أترابى من أبنائه ولا أحاول أن أصيب مما عندهم . قالت : لأنك لست فى حاجة إلى ذلك فلست محروماً . قال الصبى : فصالح محروم إذاً ؟ قالت أمه متضاحكة ، وقد أخذ إخوته من حوله يضيقون بلجاجته وإلحاحه قالت أمه : لأن أباك ميسّر عليه فى الرزق ، وقد قتر فى الرزق علىّ أبى صالح . قال الصبى : ولماذا ؟ قالت أمه : إنك لمكثار ، ثم التفتت إلى كبرى بناتها وهى تقول خذيه إلى مضجعه فقد تقدّم الليل وآن له أن ينام.

وأصبح الصبى فغدا على كتّابه كما تعود أن يفعل خمسة أيام فى الأسبوع. وقد يخطر للقارئ أن يسألنى عن هذا الصبى ما اسمه ؟ وما موطنه ؟ ومابيئته ؟ وما أسرته ؟ ومن عسى أن يكون ؟ ولكنى أجيب القارئ إن خطرت له هذه

الأسئلة كما كان الكاتب الفرنسى « ديديرو » يجيب قراءه حين يخيل إليه أنهم يسألونه أو يهمون أن يسألوه عن بعض الأمر من قصصه ، أجيب القارىء بأنه يسرف على نفسه وعلىّ بهذه الأسئلة التى قد يكون الرد عليها مفيداً لتكون القصة متسقة حسنة البناء ملتئمة الأجزاء ، يأخذ بعضها برقاب بعض كما كان النقاد القدماء يقولون . ولكنى لا أحاول أن أضع قصة فأخضعها لما ينبغى أن تخضع له القصة من أصول الفن كما رسمها كبار النقاد ؛ فقد يجب لتستقيم القصة أن يحدد الزمان والمكان وتستبين شخصية الناس الذين تحدث لهم الحوادث أو الذين يحدثون هذه الحوادث ، والذين تعرض لهم الخطوب أو الذين يبتكرون هذه الخطوب .

لا أضع قصة فأخضعها لأصول الفن . ولو كنت أضع قصة لما التزمت إخضاعها لهذه الأصول ؛ لأنى لا أومن بها ولا أذعن لها ولا أعترف بأن للنقاد مهما يكونوا أن يرسموا لى القواعد والقوانين مهما تكن ، ولا أقبل من القارىء مهما ترتفع منزلته أن يدخل بيني وبين ما أحب أن أسوق من الحديث ، وإنما هو كلام يخطر لى فأمليه ثم أذيعه ، فمن شاء أن يقرأه فليقرأه ، ومن ضاق بقراءته فلينصرف عنه ، ومن شاء أن يرضى عنه بعد القراءة فليرض مشكوراً ، ومن شاء أن يسخط عليه بعد القراءة فليسخط مشكوراً أيضاً . والمهم هو أن يخطر لى الكلام وأن امليه وأن أذيعه ، وأن يجد القارىء ما يشعره بأن له إرادة حرة تستطيع أن تغريه بالقراءة وتستطيع أن تصده عنها ، وأن يشعر القارىء أيضاً بأن له ذوقاً صافياً يستطيع أن يعرف فى الأدب وأن ينكر ، وأن يقبل من الأدب وأن يرفض ، وليس هذا كله بالشىء القليل . وما أحب أن يظن القارىء أنى أتحكم فيه أو أتجنّى عليه ؛ فأنا أبعد الناس عن التحكم وأزهدهم فى التجنى ، وأشدهم للقارىء حباً وإكبارا ، ولكنى لا أحب أن يتحكم القارىء فىّ ولا أن يتجنى علىّ ، ولا أن يخضعنى لذوقه ، كما لا أحب أن أخضعه لذوقى . ويجب أن تكون الحرية هى الأساس الصحيح للصلة بين القارىء وبينى حين أكتب أنا ، ويقرأ هو . ولو أنى استجبت لهذه الأسئلة فبينت موطن الصبى وبيئته وعرّفت أسرته إلى القراء لطال بى الحديث أكثر مما أحب أن يطول . وليس فى الحديث صبى واحد ، بل فيه إلى الآن صبيان ، أحدهما صالح هذا الذى يتخذ زهرات الحقول وسيلة إلى عشاء يصيبه ، والآخر هو هذا الصبى الذى وجد عنده صالح هذا العشاء . ولأكن منصفاً ، فقد يكون من

حق القارىء أن أسمى له هذا الصبي الثانى ما دمت قد سميت له الصبي الأول ليكون الأمر ميسراً له فلا يضطرب بين صبي يعرف اسمه واسم أبيه وصبي آخر لا يعرف من أمره شيئاً . والواقع أنى حين أخذت فى إملاء هذا الحديث لم أكن أعرف لهذا الصبي الثانى اسماً ، وما زلت أجهل اسمه إلى الآن . فلم يكن شخص هذا الصبي ولم يكن شخص صالح يعنينى ، وإنما كانت الأحداث التى حدثت للصبيين هى التى تعنينى . وأكبر الظن أن صالحاً هذا لم يوجد قط ، لأنه يملأ المملكة المصرية من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها ، يوجد فى القرى ويوجد فى المدن ويوجد فى كل مكان ، يملأ مصر نعمة وخيرا ، يُشعر الناس بأن مصر هى بلد البؤس والشقاء . وأنا أزعم أن قارىء هذا الحديث مهما يكن لا يستطيع أن يقضى يوماً من دهره أو ساعة من يومه دون أن يرى صالحاً هذا الذى لا يجد ماينفق ، والذى يود أن تتاح له الوسيلة ليجد الغداء أو العشاء ، عند رفيقه ذاك الصبي الذى لم نجد له اسماً إلى الآن . فلنتفق على أن اسمه « أمين » ، وعلى أنه كان يختلف إلى الكتّاب مع قليل جدًّا من أمثاله الذين يعيشون فى شيء من اليسر ، وكثير جدًّا من أترابه الذين يستظلون بهذا الظل الوارف الجميل ظل البؤس والشقاء والحرمان وابتغاء الوسيلة للظفر بما يقيم الأود عند هذا الرفيق أو ذاك .

لم يوجد صالح قط لأنه يملأ المملكة المصرية . وإذا أسرف الشيء فى الوجود فهو غير موجود ، سواء أرضيت الفلسفة عن هذا الكلام أم لم ترض . أما أمين فموجود من غير شك ، لأننا نراه ولا نكاد نرى غيره لأنه عظيم الخطر ، فهو هذا الصبي الذى لا ينام جائعاً إذا أقبل الليل ، ولا يغدو طاوياً على المدرسة أو على الكتّاب ، ولا يطول انتظاره للغداء إذا آن وقت الغداء ، ولا ينبغى أن يطول انتظاره للعشاء إذا أقبل الليل ، لأن من حقه أن يتناول الطعام فى إبّانه ، وأن يأخذ بقسطه من النوم حتى لا تتعرض صحته الغالية لبعض ما يؤذيها . هذا الصبي أو هذا الفتى الذى اتفقنا على أن اسمه « أمين » موجود من غير شك ، لأنه لا يملأ القرى ولا يملأ المدن ، وإنما هو شخص ممتاز يمكن أن يُحْصَى أمثاله وأترابه إحصاء دقيقاً فى كل قرية وفى كل مدينة . وهو من أجل ذلك موجود لأن عدده محدود ، ولأننا نستطيع إحصاءه واستقصاءه والدلالة عليه .

وهنا يرتفع رأس القارىء وقد ظهرت على وجهه ابتسامة ساخرة وبرقت

عيناه بريق الانتصار والفوز وهو يسألنى فى صوت فاتر ساخر : لقد أردت أن تتجنب الإطالة بالإجابة على أسئلتنا ، فهل أنت إلا ممعن فى الإطالة بهذا الكلام الكثير الذى لا يغنى ولا يفيد ! معذرة يا سيدى القارئ الكريم ! بل إن هذا الكلام الكثير يغنى كل الغناء ويفيد كل الفائدة . فأنت تلقى فى كل يوم ألف صالح وصالح دون أن تحس لواحد منهم خطراً أو تعرف له وجوداً ؛ قد كثر لقاؤك لهم واتصلت معاشرتك إياهم حتى أصبحت الحياة بينهم شيئاً يسيراً مألوفاً لا يحفل به ولا يلتفت إليه ، وحتى أصبحت معاشرة البؤس والشقاء والحرمان شيئاً تطمئن إليه كما تطمئن إلى الصحة والعافية ، ولا تلتفت إليه كما أنك لا تلتفت إلى الهواء الذى تتنفسه والنور الذى تهتدى به . وترى أميناً أو آمينين أو أمناء بين حين وحين فيملأ كل واحد منهم قلبك وعقلك ويشغل همك وعنايتك . فأيهما خير أن ألفتك إلى صالح هذا البائس المسكين الذى ملأ مصر نعمة وخيرا ، وملأت مصر حياته شقاء وبؤساً ، أم أن أحدثك عن أمين وموطنه وبيئته وأسرته لتستقيم القصة وتستوى رائعة بارعة ملائمة لأصول الفن التى رسمها النقاد ؟ أما أنا فأوثر أن أتحدث إلى قلبك وما يضطرب فيه من عاطفة وما يشيع فيه من شعور على أن أتحدث إلى عقلك وذوقك وما يثيران فى نفسك من تهالك على النقد وحب للاستطلاع .

أوثر أن أتحدث إلى قلبك وأن ألفتك إلى صالح هذا الذى وُجِد وأسرف فى الوجود ، حتى اعتقدنا أو كدنا نعتقد أنه غير موجود . ومن يدرى ! لعلى حين ألفتك إلى صالح إنما ألفتك إلى نفسك . وما أحب أن تغضب ولا أن تثور ؛ فما أردت ، وما ينبغى أن أريد إلى إيذائك أو التعريض بأنك قد اتخذت فى يوم من الأيام زهرات الحقول وسيلة إلى خير تصيبه كما فعل صالح ، وإنما أردت أن أقول إن فى حياة كل واحد منا نحن كثرة المصريين شيئاً من صالح ؛ فصالح صورة البؤس والشقاء والحرمان . وما أقل المصريين الذين لا يصورون بؤساً ولا شقاء ولا حرماناً ؛ وليس البؤس مقصوراً على هذه الصفة التى تأتى من الفقر وما يستتبعه الفقر من الجوع الذى يمزق البطون والإعدام الذى يمزق الثياب ويظهر من ثناياه الصدور والظهور والأكتاف ، ولكن البؤس قد يتصل بأشياء أخرى ليست جوعاً ولا إعداماً ولكنها قد تكون شراً من الجوع والإعدام ، لأنها تتصل بالنفوس والقلوب . وإنى لأعرف قوماً كثيرين

تمتلئ أيديهم بالمال ويعظم حظهم من الثراء حتى يضيقوا به ، وهم مع ذلك يجدون بؤساً أى بؤس وشقاء أى شقاء ، ويتخذون زهرات الحقول أو هذا الزهر الذى تصنفه أيدى الحسان تصنيفاً فى الحواضر والمدن وسيلة إلى شئ يصيبونه عند من قد يكونون أقل منهم غنى وأضيق منهم ثراء .

***

مهما يكن من شئ فقد غدا الصبى الذى اتفقنا على أن اسمه «أمين» على كتّابه كما تعوّد أن يفعل إذا كان الصباح ، فلقى أترابه وشاركهم فى الجد والهزل وفى الدرس واللعب . حاول أن يحفظ حصته من القرآن فانصرف عن هذا الحفظ إلى مداعبة اللدات والأتراب . وكان قد أُنسى قصة صالح ولم يذكر إلا أنه سيعود معه آخر النهار إلى الدار ، ولكنه اضطر حين تقدم النهار إلى أن يذكر صالحاً فى كثير جدّاً من القلق والخوف ، ثم فى كثير جدّاً من الجزع والهلع ، ثم فى كثير جدّاً من الألم والحزن . فقد «سمع» سيدنا الضرير يسأل عريفه البصير: هل تفقدت الأختام ؟ قال العريف : نعم . قال سيدنا : وهل سلمت لك كلها ؟ قال العريف : نعم إلا ختم صالح ابن الحاج علىّ فإنه قد ضاع ، وما أشدحاجة هذا الفتى إلى التأديب فإنه لا يطيع أمراً ولا يسمع كلاماً ولا يخرج من الكتّاب مع العصر إلا لينغمس فى الماء .

وهنا يسأل القارئ — وما أكثر ما يسألنى القراء كما كانوا يسألون ذلك الكاتب الفرنسى الذى ذكرته آنفاً — هنا يسأل القارئ عن هذه الأختام ما هى ؟ وماذا يمكن أن تكون ؟ ولا بد من أن أجيبهم ؛ فأكثرهم من أبناء هذا الجيل الذين لم يذهبوا إلى الكتّاب ولم يعرفوا قصة الأختام والماء ، وقليل منهم قد بعد عهده بالكتاب وما كان يحدث فيه من الخطوب . كانت قصة الأختام هذه تمثل فى الكتّاب كل عام حين يقدم الصيف ويشتد القيظ ويحب الصبية والفتيان أن يتبردوا بماء النهر أو بماء القناة إذا خرجوا من الكتّاب مع العصر أو إذا ذهبوا إلى دورهم للغداء . وكانوا يسرعون إلى نسيان القيظ والتبرد متى انغمسوا فى الماء ، وينصرفون إلى العبث والسباحة والاستباق فى العوم . وكانت الأسر تشفق عليهم من ماء النهر ومن ماء القناة ، وتطلب إلى «سيدنا» أن يتخذ مايرى من وسائل التأديب والتقويم ليصدهم عن هذه الرياضة

الخطرة . وسيدنا قد اتخذ قطعة مستديرة من الخشب واحتفر فيها شيئاً لا أدرى ما هو . فإذا كاد الضحى يرتفع أقبل العريف بهذه القطعة من الخشب التى كانت تسمى الختم وغمسها فى مادة حمراء وختم بها أفخاذ الصبية والفتيان الذين كان يظن بهم حب الرياضة فى ماء النهر أو فى ماء القناة . وكان زوال الآية التى يتركها الخاتم فى فخذ الصبى أو الفتى دليلا على أنه قد خالف الأمر وقارف هذا الإثم العظيم . فلم يكن بدٌّ إذاً من تفقد هذه الأختام فى كل يوم وتجديدها إذا محاها طول الوقت ، وعقاب الصبى أو الفتى إذا محيت آية الختم على فخذه قبل الأوان . ولست أدرى أيعرف القارئ أو لا يعرف أن العريف فى الكتّاب قد كان رمز الرشوة والفساد، كما أن «سيدنا» قد كان رمز السذاجة والقسوة . ولكن المحقق أن الصبية والفتيان كانوا يقترفون إثمهم هذا العظيم فى غير اكتراث ، ولا يكادون يخرجون من الكتّاب حتى يسرعوا إلى الماء ويلقوا أنفسهم فيه . وكانوا يشترون كذب العريف ورضاه بما يقدّمون إليه من هذه الطُّرَف اليسيرة التى يحملونها من بيوتهم يسرقونها للعريف أحياناً ويصرفونها عن أنفسهم إليه دائماً . ولم يكن صالح يحمل طرفاً يسيرة ولا خطيرة لنفسه أو للعريف . وقد طال على العريف إبطاء صالح عليه بالرشوة . ولم يسأل نفسه أكان هذا الإبطاء عن عجز أم كان عن عمد ومكر . فأراد أن يؤدبه فأفشى أمره لسيدنا ، ولو آثر الصدق لما خص صالحاً بهذه الوشاية . وكان أمين يعلم هذا حق العلم كما كان يعرفه غيره من أترابه . ولأمر ما امتلأ قلبه فجاءة حبًّا لصالح وعطفاً عليه ورحمة له ، فلم يكد يسمع العريف البصير يغرى به سيدنا الضرير حتى صاح بأعلى صوته : إن العريف لم يقل لك الحق كله ؛ فليس صالح وحده هو الذى فقد ختمه ، وإنما فقده الأتراب جميعاً لأنهم يذهبون جميعاً إلى النهر أو إلى القناة ، ولكنهم يرشون العريف بما يحملون إليه من طرف ، فأما صالح فلا يحمل إليه شيئاً . وكانت النتيجة الطبيعية لهذه الشجاعة أن أُديرت « الفلقة » على ساقى صالح وعمل السوط فى رجليه حتى دميتا ، ثم أُديرت « الفلقة » على ساقى أمين ومس السوط رجليه مسًّا خفيفاً لم يدمهما ولكنه علّم أميناً أن الشجاعة والصراحة وقول الحق خصال لا تحسن فى جميع المواطن . . . ولو وقف الأمر عند هذا الحد لهانت المحنة وسهل احتمالها ، ولكن الأتراب والرفاق أعرضوا عن صالح وأمين واتخذوهما عدوًّا ، وجعلوا يكيدون لهما ويمكرون بهما ويذيقونهما من

العبث فنوناً وألواناً . وقد عاد صالح مع أمين إلى داره لا يكاد يحسن المشى على رجليه ، ولكنه وجد عند رفيقه تسلية وتعزية . ولم تكد أم أمين ترى هذا البائس المسكين حتى رحمته ورقت له وآثرته ببعض الخير ، ثم أهدت إليه ثوباً من ثياب ابنها ، لم يكد صالح يراه حتى جُنَّ جنونه وخرج عن طوره من الفرح ، ونسى « الفلقة » التى دارت على ساقيه والسوط الذى مزق قدميه ، وأقسم ليسرعن إلى الماء وليغمسن نفسه فيه ، وليضيعين آية الختم الجديد ، وليتعرضن لوشاية العريف ، وغضب سيدنا ، فما ينبغى أن يلبس هذا الثوب الجميل دون أن يستحم ويزيل من جسمه آثار ذلك الثوب البالى القذر . قالت له أم أمين لا بأس عليك ، فسأطلب من سيدنا أن يعفيك من الفلقة والسوط غداً . وانصرف الصبى فرحاً مرحاً محبوراً . وقال أمين لأمه ألا تنبئيننى الآن لماذا ضرب سيدنا صالحا ضرباً مبرحاً حتى أدمى رجليه ولم يضربنى أنا إلا عابثاً ؟ قالت : لأن صالحاً أضاع الختم وخالف الأمر وانغمس فى الماء فكان ذنبه عظيما يستحق عقابا عظيما . فأما أنت فقد خرجت عن حدود اللياقة حين قلت أمام أترابك ما قلت فى العريف ، فكنت خليقاً أن تلقى عقاباً يسيرا . قال الصبى : وأنا مع ذلك لم أقل إلا الحق ! قالت أمه وهى تضحك : فإن الحق لا يقال فى جميع المواطن . قال الصبى : وكيف السبيل إلى أن أعرف المواطن التى يقال فيها الحق والمواطن التى يقال فيها الباطل ؟ قالت أمه وهى تضحك : ستعرف هذا كله إذا تقدمت بك السن ، فأما الآن فانصرف إلى حديدك هذا الذى جمعته فى زاويتك تلك والعب به ، وتحدث إليه حتى تدعى للعشاء .

وذهب أمين إلى حديده فلعب به وتحدث إليه ، وأحدث من الضجيج والعجيج ماشاء الله أن يحدث ، ولكنه انصرف عن حديده وزاويته وسعى إلى أمه يسألها : ما بال صالح لا يحمل إلى العريف مثل ما يحمل إليه غيره من الطرف والهدايا ؟ قالت أمه : لأن صالحاً فقير معدم لا يجد ما يقوت به نفسه فضلا عن أن يجد ما يهدى إلى العريف . قال أمين : ولماذا كان صالح فقيراً معدما لا يجد ما يقوت به نفسه وما يدفع به شر العريف ؟ قالت أمه وقد أخذت تضيق بإلحاحه : لقد عدت إلى ثرثرتك فامض لشأنك ولا تثقل علىّ . ولكن الصبى لم يمض لشأنه وإنما مضى فى الإثقال على أمه ، فلم تتخلص منه إلا حين أظهرت له الغضب وأنذرته إنذاراً كاد يبكى له ، ثم رحمته فوضعت فى يده قطعة

من النقد وهى تقول : اذهب فاشتر بهذا شيئاً من الحلوى قال الصبى مبتجهاً : سأشترى بنصفه شيئاً من الحلوى وسأدفع نصفه الآخر إلى صالح ليؤديه إلى العريف إذا كان الغد ثم انصرف يعدو وقد ارتفع صوته بالغناء .

ولكن أميناً لم يدفع نصف القرش إلى صالح ، لأن صالحا لم يذهب إلى الكتَّاب من غده . وقد وقع فى نفس الصبى شىء من الغيظ ثم من الحزن حين التمس رفيقه فلم يجده ، وحين انتظر مقدمه فلم يقبل حتى ارتفع الضحى ، وحين استيقن أن صالحاً لن يلمّ بالكتّاب من يومه ، ثم لم يلبث أن تسلّى عن صالح وغيبته بمداعبة الرفاق والأتراب . ثم لم يكد يفرغ من غدائه بين سيدنا الضرير وعريفه البصير حتى خرج ليشهد صلاة الظهر فيما زعم ، ولكنه اشترى بنصف القرش بعض هذا السخف الذى يحبه الصبية وعبث مع أترابه حول المسجد ، وعاد معهم إلى الكتّاب وما يشك سيدنا وما يشك العريف فى أنه قد شهد الصلاة .

وانقطع صالح عن الكتّاب يوماً ويوماً ، ثم أقبل عليه ذات صباح كئيباً محزونا لايكاد قدُّه يستقيم من الضعف . ونظر أمين فإذا هو فى ثوبه ذلك البالى القذر . وقد تلق أمين رفيقه مبتسما له حفيًا به مستنبئاً عن غيبته تلك التى طالت . وهمّ صالح أن يجيب ولكن صوته احتبس فى حلقه وجرت على خديه دموع منسجمه غزار ، فبهت أمين لأنه لم يعرف البكاء الصامت قط ، ولم يقدّر أن الصبيه يمكن أن يبكوا دون أن يمسهم سوط سيدنا أو دون أن يعنف بهم الآباء والأمهات ليؤدبوهم بالايدى حيناً وبالكلام أحياناً . ثم استبان لأمين من أمر رفيقه ما ملأ قلبه حزنا ودفعه إلى كثير من الحيرة والشك والاضطراب . فقد كان الثوب الذى أهدته أمه إلى رفيقه مصدر شقاء عظيم وضر ملحٍّ لهذا الرفيق البائس . خرج صالح بثوبه الجديد مسروراً محبوراً تكاد ساقاه تسبقان الريح عدواً ، ويكاد صوته المرتفع بالغناء يسكت الطير التى كانت ترقص على أغصان التوت وتنشر فى الجو ألحانها العذاب . وانغمس فى القناة كأحسن ماتعلّم أن ينغمس ، وعام فى القناة كأحسن ماتعوّد أن يعوم ، فبذ الأتراب وتفوق على الرفاق ، وخرج من القناة فرحاً مرحاً مبتهجاً مغتبطاً ، قد امتلأت نفسه رضاً وامتلأ قلبه سعادة ، وفاض من نفسه الراضية وقلبه السعيد على جسمه جمال

غريب لفت إليه أصحابه وأترابه ، وقال بعضهم لبعض : ما رأينا صالحاً كما نراه اليوم ، حسن المنظر رائع الطلعة قد امتلأ قوة وحياة ونشاطاً . ثم دخل فى ثوبه الجديد وكاد السرور أن يدفعه إلى شىء من الغرور ، ولكن الحياء اضطره إلى بعض القصد وأمسكه فى بعض الاعتدال ، فرضى عن نفسه فى دخيلة ضميره ، وارتفعت إليه أبصار أصحابه بألوان من الغبطة والحسد ومن العطف والبغض .

وعاد مع مغرب الشمس إلى داره يكاد يخطر فى ثوبه الجديد ، وقد طوى ثوبه البالى القذر وحمله بين ذراعه وجنبه متأذيا متكرهاً لاحتماله ، ولو استطاع لتركه فى بعض الطريق ، ولكنه كان أذكى من ذلك قلباً وأصدق من ذلك فطنة ، فاحتمل ثوبه ذلك البالى إلى امرأة أبيه لعلها تستطيع أن تصنع منه شيئاً .

وما أشك فى أن القارئ سيقف عند هذا الموضوع من الحديث ، وسيسأل نفسه ولو استطاع لسألنى أنا : ألم يكن من الخير أن نعرف من أول القصة أن صالحاً قد فقد أمه وأنه كان يعيش يتيما ينعم بما يختلس من حب أبيه سرًّا ويشقى جهرة بما يُصَبُّ عليه من بغض هذه الضرة التى قامت مقام أمه فى البيت ؟

ولست أشك فى أن القارئ سيضيف إلى هذا السؤال ملاحظة فيها شىء من القسوة والسخرية والغيظ ، فيقول فى نفسه : لو أن الكاتب سلك فى قصته الطرق الممهدة والسبل المعبدة التى رسمها النقاد للقصة لعرَّف إلينا صالحا فى أول حديثه ولأنبأنا بموت أمه وتزوج أبيه ، ولأعفانا من هذه المفاجأة التى لم نكن فى حاجة إليها . ولكنى أعيد على القارئ ما قلته آنفاً من أنى لا أضع قصة ، وإنما أسوق حديثاً ، وأضيف إلى ذلك أن الذين يسوقون الأحاديث لا يقدمون بين يديها هذه المقدمات التى يبينون فيها الموطن والبيئة والأسرة والزمان والمكان إلى آخر هذا الكلام الكثير الفارغ الذى يلهج به النقاد . ولو أنى بدأت هذا الحديث برسم واضح دقيق لشخصية صالح وأمين ومن يتصل بصالح وأمين من الناس ، لضاق القراء بهذه المقدمات أشد الضيق ، ولقال بعضهم : تجاوَزْ حديث الطوفان وصِلْ إلى غايتك فلسنا من الغباء والغفلة بحيث نحتاج إلى كل هذا التمهيد .

وبعد فمن أنبأ القارئ بأن صالحا يتيم وبأن أمه قد ماتت ؟ الشىء

الذى لا أشك فيه ولا ينبغى أن يشك فيه القارئ هو أن صالحا لم يكن يتيما ، وأن أمه لم تكن ميتة ، وإنما كانت حية أكثر مما ينبغى أن يحيا الناس ، إن صح أن تكثر الحياة وتقل . وسواء رضى القارئ أم لم يرض فقد كانت أم صالح حية من غير شك لأنى أنا أريد ذلك ، وليس يعنينى ما يريد غيرى من الناس ؛ فأنا الذى أخترع صالحا من لاشىء ،أو أخذ صالحا من عرض الطريق لأن صالحا موجود ولأنه غير موجود . موجود فى حقيقة الأمر ، لأننا نراه فى كل ساعة وفى كل مكان ، وغير موجود فى حقيقة الأمر أيضاً لأنه يملأ المدن والقرى ويسرف على نفسه وعلى الناس فى الوجود ، والشىء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده ، كما يقال . فأنا إذاً وحدى - كما كان يقال أيضاً - أعرف من أمر صالح مالا يعرف غيرى من الناس ، وأقرر أن أمه لم تترك الدار لأنها ماتت ، وإنما تركت الدار لأنها طلـّقت . وأنا أستطيع ان أصنع بأمه بعد هذا الطلاق ما أشاء : أستطيع أن ادعها مطلقة تعمل خادماً فى بعض الدور ، وأستطيع أن أجد لها زوجاً تعيش معه سعيدة موفورة ، وأستطيع أن أسخرها لعمل من هذه الأعمال التى يعيش منها أمثالها من البائسات ، فقد أسخرها لبيع الخضر ، وقد أسخرها لبيع الفاكهة ، وقد أكلفها أن تصنع الخبز فى بيوت الأغنياء وأوساط الناس ، وقد أكلفها أن تغسل الثياب فى هذه البيوت ، وقد أجد لها ما أشاء من الأعمال غير هذا كله ؛ لأنى حر فيما أحب أن أسوق إلى القارئ من حديث ، ولأن القارئ يضطر إلى أن يتلقى حديثى كما أسوقه إليه ، ثم هو حر بعد ذلك فى أن يقبله أو يرفضه ، وفى أن يرضى عنه أو يسخط عليه .

والواقع من الأمر أنى لا أكلف أم صالح شيئاً من هذه الأعمال التى ذكرتها ولا أفرض عليها شيئاً من هذه الخطط التى رسمتها ؛ لأنى على حريتى فى أن أصنع بها ما أشاء ، أوثر الأمانة فى رواية التاريخ . وقد حدثنى التاريخ بأن خديجة أم صالح قد كانت شاذة الخلق سيئة العشرة ، وبأن الحاج عليـًا أبا صالح لم يكن ظالماً ولا جائراً حين طلقها بعد أن ولدت له صالحا بعام أو عامين . فقد كان هذا الرجل طيب القلب سليم النفس ، لا يحب شيئاً كما يحب الدعة والهدوء . وكانت امرأته خديجة أم صالح منكرة الخلق بغيضة العشرة كثيرة الكلام شديدة الصياح ، لا ترضى بشىء ولا ترضى عن شىء ، فاضطر هذا الرجل البائس إلى فراقها ، واستبقى ابنه صالحا فى كنفه . وحاول أن يفرغ له ويقوم على تربيته فلم يستطع

لأن خطوب الحياة تكلف أمثاله أن يعملوا ليعيشوا . ولم يكن من الممكن أن يعمل الرجل لكسب القوت وأن يفرغ لتربية ابنه . وهو بعد ذلك رجل من الناس لا يستطيع أن يعيش إلا كما يعيش الناس ، فاضطر إذاً أن يتخذ لنفسه امرأة تربى له صالحا وتمنحه غيره من الولد . واتخذت خديجة لنفسها زوجاً يعينها على الحياة ويعوضها من صالح هذا الذى احتجزه أبوه لأنه اشترى القاضى بأرطال من البن . وماذا تريد أن أصنع وقد كانت الحياة تجرى على هذا النحو فى ذلك العهد القديم !

وليس أدل على أن أبا صالح قد كان معذوراً حين فارق امرأته من أن خديجة قد اضطرت زوجها الثانى إلى أن يطلقها بعد أن وهبت له غلاماً أسماه سعيداً ، وهو قد فارقها لنفس الأسباب التى فارقها من أجلها زوجها الأول ؛ فقد كانت سيئة العشرة بغيضة الخلق كثيرة الكلام مرتفعة الصياح لا ترضى بشىء ولا ترضى عن شىء . ولكن حظها فى هذا الطلاق الثانى كان حسناً أو سيئاً لا أدرى ! فما أكثر ما تختلط أمور الناس على الأذكياء حتى لا يفرقوا بين الخير والشر ، فكيف بمن كان مثلى قليل الحظ من الذكاء لا يفرق بين السعادة والشقاء ! والشىء المحقق هو أن خديجة لم تكد تطلق حتى مات زوجها وترك لها ابنها سعيداً تربيه كما تشاء أو كما تستطيع . ولم تربه كما شاءت أو كما استطاعت ، وإنما ربته الطبيعة كما أحبت . وقد زهد الأزواج فى هذه المرأة ذات العشرة السيئة والخلق البغيض ، وثقلت الحياة على هذه المرأة ذات الحيلة الضيقة والعقل الكليل ، فباعت الفجل حيناً والترمس حيناً آخر ، ثم اختلط الأمر عليها فجنّت جنوناً هادئاً رفيقاً ، عطف عليها القلوب وأخاف منها الناس ، فسميت « خديجة المعفرتة » وعاشت من إحسان المحسنين . وبينما كان ابنها سعيد ينمو فى ظل هذا الجنون الهادئ المخيف كان ابنها صالح ينشأ فى ظل هذه الضرة التى أظهرت حبًّا له وعطفاً عليه ، ثم رزقت البنين والبنات فأظهرت بغضاً له وضيقاً به . وكذلك نشأ أحد الأخوين فى حماية البغض العاقل ، ونشأ الآخر فى رعاية الحب المجنون .

حدثنى أيها القارئ العزيز أكان من الخير أن أعرض عليك تفصيل هذا كله فى أول هذا الحديث فتضيق بى وبصالح وبأمين وبالجملة التى تحمل إليك هذا الحديث ، أم كان الخير أن أذهب إلى المذهب اليسير الذى اخترته وأن أحدثك بكل شىء حين يحين التحدث به إليك ؟ أنا أعرف أنك ستعاند وستمارى ،

وستذهب فى عنادك ومرائك مذاهب مختلفه ، فأنت وما تشاء . أما أنا فقد ذهبت المذهب الذى اخترته ، وحدثتك بالأمر على النحو الذى آثرته ، وانتهيت منذ حين إلى أن صالحاً قد استحم فى القناة ودخل فى ثوبه الجديد وعاد إلى امرأة أبيه مسروراً بهذا الثوب الذى لبسه مهدياً ثوبه القديم الذى ضمه بين ذراعيه وجنبه .

ولكن امرأة أبيه نظرت إليه من رأسه إلى قدمه فرأت ثوبه الجديد ورضيت عنه ورأت ثوبه القديم وضاقت به ، ثم أدارت بصرها فى الحجرة فرأت ابنها وبنتها قد اتخذا ثوبين باليين كذلك الثوب القديم يبديان عن الكتفين كما يبديان عن الظهور والصدور ، ثم ردت النظر إلى صالح فى ثوبه الجديد ، ثم أعادت النظر إلى ابنيها فى ثوبيهما القديمين ، ثم ارتدت عيناها إليها وقد ارتسمت فى نفسها الخطة واضحة جلية ولكنها بشعة بغيضة ؛ فإن هذا الثوب الجديد لم يخلق لصالح ، وإنما خلق لابنها محمود . ولم يشرق الصبح من غد حتى كان صالح قد لقى من أبيه ومن امرأة أبيه نكراً ، فضرب ضرباً مبرحاً مرض له أياماً ، وجرِّد من ثوبه الجديد الجميل ورُدَّ إلى ثوبه القديم البالى ، وعجز الفتى عن الذهاب إلى الكتّاب من غده ، وأقام فى الدار كَنًّى فى زاوية من زواياها يهمل فى ازدراء ويمرّض فى عنف ، حتى إذا استطاع أن يمشى على قدميه سعى إلى الكتّاب ليشقى فيه ببغض العريف وقسوة سيدنا ، ولينعم فيه بعشرة أمين .

كذلك عرف أمين قصة رفيقه البائس ، فلم يدر عقله الناشئ كيف يقضى فى هذه القصة . لو أنه لم يتحدث إلى أمه عن ذلك الثوب البالى الذى كان صالح يلبسه لما أهدت أمه إلى صالح ذلك الثوب الجديد ، ولمضت أمور صالح على ذلك البؤس الهادئ المطرد . فهو إذاً قد أراد أن يحسن إلى رفيقه فأساء إليه . أيلوم نفسه فى ذلك أم يلتمس لها المعاذير ؟ والحق أنه لم يلم نفسه أو يعذرها ، وإنما فرغ لصاحبه يعزّيه ويسليه ، وحدث نفسه بأن أمه الكريمة الرحيمة قد تجد بين ثيابه ثوباً آخر تكسو به رفيقه المسكين . ولكن القارئ يخطئ أشد الخطأ إن ظن أن الحياة تجرى دائماً على هذا النحو المألوف من المنطق وتلائم دائماً ما ألف الناس من التفكير والتقدير . فليست الحياة أقل منى ثورة على الأصول الموضوعة والقواعد المرسومة والخطط المدبرة ، وإنما الحياة تمضى كما تريد هى لا كما يريد الناس . وقد راح صالح وأمين من الكتّاب مساء ذلك اليوم . فلم يرعهما حين بلغا ذلك المكان الذى تمتد فيه الخطوط الحديدية من الشمال إلى

الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال إلا جماعة مزدحمة تتصايح ويدعو بعضهما بعضاً ولم يبلغا هذه الجماعة حتى رأيا منظراً راعهما وروعهما : جثة قد شطرت شطرين وألقى عليها ثوب غليظ يستر بشاعتها عن العيون ، وامرأة قائمة تلطم وجهها وتضرب صدرها وتسفح دمعها وتنشر فى الفضاء ضحكا عريضا . فأما الجثة فكانت جثة سعيد أكلها القطار . كما كان يقال فى تلك الأيام . وأما المرأة فكانت خديجة تدفعها الغريزة إلى الجزع ويدفعها الجنون إلى الضحك . وأما صالح فنظر إلى أخيه ونظر إلى أمه وهمّ أن يقف ولكنه آثر أن يمضى مع رفيقه كأنه لم ير شيئا . ولست أدرى ما صنع الرفيقان ، ولكنى أعلم أن أبا أمين راح إلى أهله حين تقدّم الليل وهو يقول محزوناً : لقد كانت القطر شرهة منذ اليوم ، أكل أحدها سعيداً مع الظهر وأكل الآخر صالحاً مع الليل ، وفقدت « خديجة المعفرتة » ابنيها فى يوم واحد . ثم التفت فرأى ابنه أمينا مذعوراً يكاد ينقدّ من البكاء ، فمسح على رأسه وقبّل بين عينيه وقال له فى صوت رفيق : لن تغدو على الكتّاب إذا كان الصبح ، لأنك ستذهب إلى المدرسة الابتدائية فى عاصمة الإقليم .

قال أمين بعد أن تقدمت به السن وأصبح رجلا ذا خطر : ما زلت أرى تلك الجثة قد ألقى عليها ثوب غليظ ، ولكنى أنظر إلى وجهها فلا أرى وجه سعيد وإنما أرى وجه صالح ؛ ومع ذلك فلم أر صالحا حين أكله القطار .

طه حسين